ما هي السعادة؟

يُقال أن السعادة تعني غياب الألم في الجسم والاضطرابات في النفس.
ويقول كونفوشيوس أن السعادة تسود المجتمع إذا سلك كل فرد سلوكاً صحيحاً.
أرسطو يرى أن السعادة مستحيلة دون حكمة عملية ودون فضيلة أخلاقية.
ولدى زرادشت الصدق هو السعادة، والسعادة في العقل، والعقل البشري يصل إلى الكمال بالعلم والمعرفة. والأخلاق الحميدة هي من أجل سعادة ورقي العالم.
ومنهم من يرى السعادة بالمحبة. ألبير كامو في رواية الطاعون يقول: " في داخل كل منا المحارب من أجل السعادة، ومن أجل مشاركة السعادة ومن أجل التغلب على عبثية الحياة سيجدون عبر الوقت طريقاً للسعادة يمر بالمحبة".
ومنهم من اعتبر أن الجهل سبب الشقاء، ومنهم من يرى السعادة في الحياة البسيطة البعيدة عن المظاهر والترف؛ فالترف هو الشر الأول الذي يُصدع البيوت والمدن، ومنهم من يجد التعاسة في الاستغراق بالشهوات، وهناك من يرى السعادة بإرادة القوة، القوة التي دعا إليها نيتشه.
فبعد استطلاع كل هذه الآراء أصبح من المؤكد أن السعادة هي حال الإنسان الصالح العادل المؤمن بقضاء الله وحال الإنسان الذي يعيش دون توبيخ الضمير، والإنسان المكتفي بما لديه فقناعته تشعره بالامتلاء فلا يطمع أو يلهث خلف ما لا يستطيع الحصول عليه.
وإذا كنا نريد في هذا السياق تفسير معنى الخير الأعظم الذي اعتبره أفلاطون شرطاً أساسياً للحصول على السعادة بماذا نفسره؟ وكيف يمكن التوصل إلى الخير الأعظم؟

يقول نيتشة "ما الخير؟ – كل ما يعلو، في الإنسان، بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها.

ما الشر؟ – كل ما يصدر عن الضعف.

ما السعادة؟ – الشعور بأن القوة تنمو وتزيد، – وبأن مقاومة ما قد قُضي عليها"[3].

نعم قد نتوافق مع هذا التفسير فالإرادة تصنع المعجزات وتخلصنا من الضعف أيًا كان هذا الضعف، وحين نتخطى العقبات نشعر بسعادة لا توصف، فالشر حقًا هو ما يصدر عن الضعف وعن التخاذل والكسل، فلا سعادة تأتي من فراغ فالعمل له ثماره والمعرفة لها نتائجها.

الفارابي اهتم بدراسة هذه الظاهرة فكان كتابه تحصيل السعادة، الذي ضمنه خطوات يمكن عن طريقها تحقيق السعادة. أولها الفضيلة حيث يمكن أن نحصل على السعادة عن طريق اكتساب الفضائل وممارستها وعلى رأس هذه الفضائل، الفضائل الأخلاقية. ويقول في هذا السياق: " السعادة هي غاية ما، يسعى نحوها كل إنسان لأنها الكمال، وكل كمال غاية يتشوق إليها الإنسان على أنها خير ما، ولما كانت الغايات التي تشوق على أنها خيرات مؤثرة، كانت السعادة إحدى تلك الخيرات؛ وقد تبين أن السعادة هي من بين أعظم الخيرات، ومن بين أعظم المؤثرات، وأكمل كل غاية يسعى الإنسان نحوها؛ إذ أنها تؤثر لذاتها، وما يؤثر لذاته أفضل مما يؤثر لغير ذاته". والمعنى كل إنسان يطلب السعادة وهو يطلبها لأنها كمال. وهذا الكمال غاية يطمح الإنسان إلى تحقيقها ويؤثرها على غيرها، ولما كانت السعادة من بين الغايات أعظمها قدراً، وأنها إذا تحققت للإنسان لم يحتج لغاية أخرى غيرها، تبين لنا أنها إنما تُطلب لذاتها، وأنها مكتفية بذاتها، من حيث أنها الخير الأقصى للإنسان، وأكمل الخيرات التي يفضلها على غيرها".[4]

---

[3]- الأخلاق النظرية ص 281.

[4]- تاريخ الفكر الفلسفي ص 257 .

ولقد ربط الفارابي بين السعادة والفضيلة وجعل من الأخلاق المرتكز لتحقيق السعادة الفردية والجماعية. ولتحقيق السعادة الجماعية تطرق الفارابي إلى دراسة المواضيع الاجتماعية المرتبطة بمصير الإنسان كالفضيلة والسياسة والجريمة. ووصف المدينة الفاضلة بأنها المدينة التي تُنال بها السعادة الحقيقية، وشدد على ضرورة تعاون الأفراد وتكاتفهم لنيل السعادة، فالخير الأفضل والكمال الأقصى ينال أولاً بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها، فالسعادة تحصل بالتعاون. أما المدن الفاسقة والجاهلة فلم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم. السعادة حالة إنسانية يسعى كل فرد للحصول عليها، ولكي يحقق كل شخص سعادته عليه أن يسعى لتحقيق سعادة الآخرين أيضاً، فلا وجود لسعادة في مجتمع جاهل وفوضوي وغير نزيه. بمعنى: "لا تفعل الأشياء التي تجعل الآخرين تعساء، لأنهم قد يثأرون منك، ويجعلونك تعيساً؛ بل افعل – بدلا من ذلك – الأشياء التي تجعلهم سعداء، لأن ذلك سوف يزيد من الفرص التي تجعلهم يردون الجميل بالمثل".[5]

وبعض علماء الإسلام مثل أبو حامد الغزالي و الذي تعمق في دراسة مختلف العلوم ولم يستثني أي علم قبل أن يتحقق منه، وذلك لأن: "رد أي مذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رد عماية". ووصل الغزالي إلى أقصى ما يصل إليه عالم في عصره؛ وبعد هذا العِلم والمعرفة وجد أن الأمل الوحيد لديه للحصول على السعادة واليقين هو الطريق نحو التصوف: " وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، والإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق؛ أني علمت أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى أخلاق". السعادة عند الغزالي ليست اللذة أو الشهوة الجسدية فهذه

[5]- السعادة ص 149.

سعادة ناقصة طالما تتعلق بالجسد، وكلما تاق الإنسان للذات الجسدية كلما سببت له المزيد من الحاجة والألم.

وإذا أخذنا برأي جلال الدين الرومي: "تكون السعادة بالقناعة والشكر، وهذه هي حال الإنسان مع الدنيا، بعضهم يرى كوزه فارغاً مهما أترعته من متع وملذات... وهو في إقباله على ما يلذ لا يجد حدوداً ولا يشبعه حد، فكأن عقاب الله له في الدنيا يبدأ بجعله كمن يشرب من ماء البحر، لا يزيده الشرب إلا عطشاً، فكوزه فارغ مهما امتلأ، وجوعه حاضر مهما التهم وأكل، فهو لا يشعر بإشباع يجعله شاكراً"[6].

والإمام عبد القادر الجيلاني من علماء الإسلام أيضاً قد وجد السعادة في الوعظ والإرشاد والتواضع ومجالسة الفقراء وبإطعام ذوي الحاجة فقال: "فتشت الأعمال كلها، فما وجدت أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخُلق الحسن، أود لو كانت الدنيا بيدي أطعمتها لجائع".

بينما نجد السعادة عند ابن باجة تكمن بالمعرفة العقلية، والحكمة البحثية، فهذه بالنسبة له المعرفة التي تقود الإنسان إلى بلوغ الكمال. وكذلك الأمر مع ابن سينا حيث فضل اللذة العقلية الباطنية على اللذة الحسية.

أما التعاسة عند ابن عربي فهي تتمثل في وجود حجاب من الشر والجهل يحجب رؤية الله، ورفع هذا الحجاب يعني التوصل إلى رؤية الله، وعندما يرتفع حجاب الشر والجهل يتحول الفناء إلى بقاء.

بينما ابن رشد آثر الفضيلة على السعادة، قال: "من الأفكار المضرة قول البعض أن الفضيلة طريق يصل بها المرء إلى السعادة، كأن الفضيلة ليست أمراً نافعاً في حد ذاته، ولا يعتصم بها الإنسان، ويزجر نفسه عن غيها إلا على أمل المكافئة والجزاء، فكأنه لم يعمل الخير للخير بل ليكسب أجراً مضاعفاً بالربا".

---

[6]- خلال الدين الرومي ص 117.

وحتى لا نبقى ضمن مجموعة معينة من الحكماء والفلاسفة آثرنا التوسع في البحث ليطال مراحل وثقافات متعددة؛ ولا نستغرب إذا جاءت الآراء متوافقة.

جون ستوارت مل عرف السعادة على أنها أمر مرغوب فيه، وهي الأمر الوحيد المرغوب فيه كغاية. والسعادة ليست السعادة الشخصية للفاعل بل سعادة كل من يعنيهم الأمر، سلوك الإنسان الجيد تجاه المجتمع يكفل سعادته وسعادة الآخرين. وكان ينظر إلى العدالة وطهارة النية والقيمة الذاتية للشخصية على أنها القيم الأسمى.

كانط يطلق على السعادة عبارة "الخير الأسمى" تماماً كما أفلاطون. والخير الأسمى أيضا عند كانط هو وحدة الفضيلة والسعادة، الفضيلة بوصفها الشرط الأعلى للأخلاق، والسعادة بوصفها ناتج مراعاة الفضيلة، فالسعادة والفضيلة لا تخرج الواحدة منهما من الأخرى. ولكن السعادة – حسب كانط – خارجة عن إرادة الكائن وخاضعة لوجود الله مصدر الخير الأسمى. المعرفة تُقرب الإنسان من الله فيشعر بالرضا والطمأنينة.

القديس أوغسطين وجد ما يحقق سعادة الإنسان، وهو وجود معرفة إشراقية فقال: "إن هناك نوراً أزلياً أبدياً هو الشمس و التي نستطيع من خلالها أن ندرك الحقائق، وهذه الحقائق الموجودة في النفس هي فيض من النور الأول، وهو الله. وكما أن الله هو مصدر كل الأشياء، فهو مصدر الأخلاق؛ والحياة السعيدة هي النعيم في الله، ومن أجل الله، ولا شيء غير هذه الحياة يمكن أن يسمى سعيداً، فالسعادة والحقيقة شيئان مترادفان، والذي يطلب الواحدة يطلب الأخرى، وذلك لأن مصدرهما واحد هو الله."[7] الشر عند أوغسطين هو الانصراف إلى اللذات الحسية الفانية، والمعرفة ضرورية لأنها تقودنا إلى معرفة وجود الله. أوغسطين ينظر إلى العالم نظرة متفائلة جمالية، لأن هذا العالم من صنع الله.

[7]- فلسفة العصور الوسطى ص 35.

وإذا عدنا إلى الفلسفة القديمة الرواقية، ولمسألة مجاهدة الرغبات غير المتحققة في التفكير الرواقي، نجدها تؤدي دوراً مهماً، فقد تساءلوا عن الكيفية التي ينبغي بها أن يتصرف المرء إزاء حالة الاستياء الناتجة عن الرغبات غير المشبعة، أو إزاء الآلام والأحزان الأخرى للحياة. فموقفهم كان يتمثل في إنكار القول بأن مثل هذه الأشياء لها أهمية، فمثل هذه الأشياء – أي الرغبات الغير مشبعة – بلا قيمة. وقد رأوا أن ما يكون له أهمية أو قيمة، هو الفضيلة والحكمة، وهذا يتوقف على فهم المرء لموضعه في مجمل سياق الأشياء. والمفروض ألا نأمل أو نحلم بالأشياء التي لن تحدث، وأن نقبل الأشياء التي يمكن أن تحدث باعتبارها أشياء محتومة، أي باعتبارها الناتج المحتوم للأسلوب الذي يكون عليه الكون. عندما يتمسك المرء بالفضيلة والحكمة، يتفهم موضعه في سياق الطبيعة، ويتقبل الأشياء المحتومة، هذا التوافق مع الطبيعة يساهم في تشكيل سعادة الشخص.

وهنا نتوصل إلى استنتاج بأن السعادة الكاملة ليست سهلة المنال، دائماً هناك معوقات تقف في طريقها. والسعادة لا تُكتسب إلا بالحكمة والجهد، ورياضة النفس أو الطرق الصوفية، وهذا لا يتعارض مع فكر نيتشه القائل أيضا بإرادة القوة. ولكي نحقق كل هذا لا بد من المعرفة لأن المعرفة والحكمة من المسائل التي تحصن الناس حتى لا يغرقوا في المتاهات التي تجعل حياتهم تعيسة.

أما عن القول بأن السعادة تتحقق عن طريق الإيمان بقضاء الله، فهذا الطريق هو الطريق الآمن والمريح؛ وهذا قول لجلال الدين الرومي يصف فيه أهمية التسليم بإرادة الله: "لأن من يدرك ماهية الوجود بأسره يصبح خالياً من كل إرادة ومشيئة، فيصل الإنسان حينئذ إلى حالة الزهد الإرادي والتسليم والطمأنينة الكاملة والخلاص المطلق من كل إرادة – حين يبلغ مرحلة الزهد – وفي هذه المرتبة العليا للحياة الإنسانية ينكر الإنسان ذاته. ويعزف عن الطبيعة كلها فلا يتعلق بأي مظهر من مظاهرها، لأن فيه تعبيراً عن إرادة الحياة، فإذا وصل بعد هذه

المجاهدة الشاقة لبدنه وطبيعته، إلى الإنكار المطلق والزهد الخالص في الوجود، استحال إلى عقل خالص ومرآة صافية باستمرار، يتجلى فيها هذا العالم".[8]

[8]- الأخلاق النظرية ص 278.